# دراسات فى التاريخ الإسلامى

ألف هذا الكتاب الدكتور جمال الدين الشيال أستاذ التاريخ الإسلامى وعميد كلية الآداب بجامعة الاسكندرية، سابقا.

هذا الكتاب مجموعة أبحاث تدور حول أحداث تاريخية كبرى أو شخصيات تاريخية مؤثرة فاعلة.

ويستهل الكتاب ببحث عن (محمد المصلح الثائر)

لا يختلف اثنان على أن رسول الإسلام، عليه السلام، علامة مضيئة تشكل نقطة تحول فى تاريخ الإنسان قال بهذا معنا، حتى الذين لم يعتنقوا الإسلام.. ومن هؤلاء ارنست هيجل فى كتابه (لغز العالم) ومثل «روبرت بريفالت» فى كتابه (تكوين الإنسانية)

كان النبى عليه السلام صاحب رسالة يعرف ما تتطلبه من تضحيات فحملها مؤمنا بها قويا صلبا لا تلين له قناة.. ويشفق عليه عمه فيقول: (والله ياعمى، لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه

يقول المؤلف الدكتور جمال الدين الشيال:

[كان أول عمل قام به محمد صلى الله عليه وسلم بعد وصوله إلى المدينة أن أصدر «الكتاب» أو «الصحيفة» هو أشبه بما نسميه اليوم «بالدستور» فهذا «الكتاب» أو هذه «الصحيفة» هى دستور المدينة الأول، وأول وأهم ما جاء فيه قوله عليه السلام.

وهذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم: إنهم أمة واحدة من دون الناس».

فهذا أول مبدأ من مبادىء الصحيفة، مبدأ الوحدة، مبدأ تكوين أمة واحدة تضم المؤمنين من قريش ويثرب أى من المهاجرين والأنصار، ثم يترك هذا المبدأ باب الوحدة مفتوحا يدخل فيه كل من شاء ممن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، وقد اتسع هذا النص مع الزمن حتى شمل العالم الإسلامى كله، فأصبح المسلمون جميعا يكونون- تحقيقا لهذا النص- أمة واحدة من دون الناس].

أقول وحين صارت للإسلام دولة لم يعرف التمايز بل كانت دولته، دولة الأمة الواحدة يتنقل المسلمون فى أنحائها فى ظل دستور واحد هو القرآن الكريم... المكان فيها للكفاءة وحسن السيرة (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فيتولى «ابن خلدون» القضاء فى القاهرة، ويسعى إلى، إمام مصر الليث بن سعد، الأئمة من سائر أنحاء الوطن الاسلامى.

وتثير انتصارات الإسلام بعض المؤرخين فيعزونها إلى أسباب اقتصادية تتصل بطبيعة الصحراء القاحلة.. وقلة حظها من الغنى والوفرة.. ونسوا أن الإسلام بدلهم تبديلا وطهرهم تطهيرا ووحدهم وأرسى بينهم قيما جديدة لا يضل من اتبعها حتى أعداء الإسلام فطنوا إلى هذا فحاربوه حتى فى حالات الضعف السياسى لدوله لأنهم يوقنون أن التمسك به هو القوة الحقيقية... هو الرافعة الوجدانية التى تنتع من الحضيض إلى ذرى القيمة، وترفع من الوهاد إلى إشراقة القمة.

ومن موضوعات الكتاب: (الاحتفال بوفاء النيل فى مصر الإسلامية) وكان يسمى (كسر الخليج)...

وهذا الاحتفال يلتقى عنده مؤرخو مصر الإسلامية فى احتفاء بالغ فيقول المقريزى.

(يوم معدود، ومقام مشهود، ومجتمع خاص، يحضره العام والخاص) ويقول عنه القلقشندى:

(يوم مشهود، وموسم معدود، ليس له نظير فى الدنيا.. وفيه تكتب البشارات بوفاء النيل إلى سائر أقطاب المملكة).

ويقول السيوطى:

(جـرت العـادة كل سنة إذا وفى النيل أن يرسل السلطان بشـيـرا بذلك إلى البـلاد، لتطمئن قلوب العباد، وهذه عادة قديمة، ولم يزل كتاب الإنشاء ينشئون فى ذلك الرسائل البليغة).

ويورد السيوطى بعد ذلك أربع رسالات فى هذا المعنى: إحداها من إنشاء القاضى الفاضل، والثانية من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبدالظاهر والثالثة كتبها الصلاح الصفدى، والرابعة كتبها الأديب تقى الدين أبو بكر بن حجة.

ومن أقدم من وصفوا احتفال وفاء النيل، ابن رست (جغرافى عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى- التاسع الميلادى) فى كتابه «الأعلاق النفيسة» وهذا الوصف يبين جمال الاحتفال وبساطته فى أول العهد، فقد كان الموكلون بمقياس النيل يرقبون الزيادة إصبعا إصبعا، وذراعا ذراعا، فإذا وفى وأوفى ساروا فى موكب جليل الى المسجد الجامع، مسجد عمرو بن العاص يحملون الزهور والرياحين ويقفون هناك حلقات حلقات يعلنون وفاء النيل ويشكرون الله وتتناثر الأزهار على نغمات الأناشيد والأغانى... كان النيل يزخر فى ذلك اليوم **بألف مركب** والناس فوقها يضجون بالفرح.

يقول المؤلف: وكانت الحفلات التى تقام والمهرجانات التى تعقد ابتهاجا وسرورا بوفاء النيل فى عهد الفاطميين بالغة الحد الأقصى من الجمال والبهجة والروعة والأناقة، وأهم هذه المواكب موكبان: أحدهما لتخليق المقياس عند وفاء النيل، والثانى لكسر الخليج وبينهما ٣ أو ٤ أيام، وكانت الدولة كلها خليفتها ووزراؤها، وقضاتها وقوادها وفقهاؤها وشعراؤها وفنانوها وموسيقيوها وقبل هؤلاء شعبها... كان هؤلاء جميعا يشتركون فى هذه المواكب الحافلة، فلا غرو أن قامت للآداب والفنون دولة عظيمة الشأن فى هذا العصر ولا غرو أن رضى الشعب المصرى عن احتفال نابع من قلبه الذى يجرى فيه النيل.

نأتى إلى الشخصيات التاريخية التى حفل بها الكتاب

## الشيخ محمد عياد الطنطاوى

وهو معاصر للشيخ رفاعه الطهطاوى وبينهما **رسائل طريفة** ومن أطرفها هذه الرسالة التى أرسلها إلى الشيخ رفاعة الطهطاوى يصف فيها الشيخ محمد عياد بعض ما شاهده فى الروسيا عقب وصوله إليها

يقول : (وأنا شغوف بكيفية معيشة الأوربيين، وانبساطهم، وحسن إدارتهم، وترتيبهم، وتربيتهم، وخصوصا ريفهم وبيوته المحفوفة بالبساتين إلى غير ذلك مما شهدته قبلى بمدة فى باريس، إذ «بتر بورغ» لا تنقص عن «باريز» فى ذلك بل تفضلها فى أشياء كاتساع الطرق، وأما من قبل البرد فلم يضرنى جدا، إنما ألزمنى ربط منديل فى العنق، ولبس **فروة** إذا خرجت، وأما فى البيت فالمداخن المتينة معدة لإدفاء الأرض، وطالما أنشدت عند جلوسى بقرب النار:

النار فاكهة الشتاء فمن يرد ... أكل الفواكه فى الشتاء فليصطل

وتذكرت قول الأعرابى فى يوم بارد:

فإن كنت يوما مدخلى فى جهنم ... ففى مثل هذا اليوم طابت جهنم

لقد سافرت معه النكتة المصرية إلى روسيا.

نأتى إلى ترجمة أو قصة الطبيب الخاص لمحمد على... هذا الطبيب النابه بدأ حياته بائع بطيخ.

طفل من عشرات بل مئات وآلاف الأطفال الذين تزخر بهم القرى المصرية... حبا كما يحبو أطفالنا فى الريف... مشى كما يمشى الأطفال، ونما كما ينمو الأطفال، غذاؤه الشمس والهواء، ثم الخبز والماء... ولد لابوين فقيرين يمتهنان الفلاحة شأن أهل القرى المصرية جميعا ولما بلغ الرابعة من عمره أرسله أبوه إلى الكتاب فتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم فلما شب ساعد أباه وأمه فى فلح الأرض.

ولكن الطفل كان دافق الحيوية... دافق الإحساس أيضا فصمم أن يعين أسرته أو يعول نفسه على الأقل فكان فى أوقات الفراغ يجمع بعض الثمار من بلح أو خيار أو بطيخ ويبيعها ويصيب فضلا من المال الحلال... وأبواه يلاحظان فيباركان سعيه.

بل فكر الأب فى زرع أرضه كلها بطيخا وطاب المحصول وداعبته الأحلام... إنه لو باع البطيخ فى قريته «نبروه» لما جنى من ورائه ربحا يذكر... ماذا لو ذهب ابراهيم بالمحصول الى طنطا عاصمة المديرية ليبيعه هناك وقد تمرس بالبيع صبيا غير أن الصبى كان أكثر طموحا من أبيه فأبدى رغبته فى أن يذهب بالمحصول الى العاصمة الكبرى- الى القاهرة.

وأعجب الوالدان بالفكرة وشجعهما على قبولها ما أصابه ولدهما من نجاح فى صفقاته القليلة التى مارسها فى القرية.

ونامت الأسرة ليلتها تلك والأمل الحلو يداعب خيال كل فرد من أفرادها، وأذن مؤذن الفجر وخرج الأب وابنه إلى مسجد القرية يصليان وعادا فحملا الجمال بالثمار، شاركهما فى ذلك الأم والصبية الصغار، فلما انتهوا جميعا من عملهم قبلت الأم فتاها، وباركه الأب، ودعا له بالنجاح وهلل الصبية الصغار له مودعين.

وسار الفتى فى طريقه والجمال تتهادى من خلفه وئيدة فى سيرها واستهوته مناظر القرى والمدن التى يمر بها، فهذه أول رحلة له خارج قريته، فانطلق يغنى مسرورا وانتهى به السير إلى القاهرة.. فقصد الى حى الحسين والأزهر كما أوصاه أبوه، فهو حى عامر بالسكان، وبضاعته فيه لاشك رائجة..

وانتحى الفتى ركنا من أركان السوق... ورص بطيخاته أمامه، وراح يعلن عنها فى صوت حلو رخيم... وأقبل مشتر وثان وثالث غير أن السعر الذى عرضوه لم يكن مرضيا أو مجزيا فرفض أن يبيع. وظل على رفضه إلى أن انتصف النهار أو كاد... وظن الفتى، أول الأمر، أن الزبائن ربما لاحظوا عليه سمات الغرباء من أهل الريف فأرادوا أن يستغلوا براءته... فسأل جاره عن الأسعار مستأنسا فإذا بالجواب يأتيه غير مشجع فصدمته الحقيقة الواقعة.

ويفكر ابراهيم فى المشكلة ويبدىء ويعيد فلم يجد أمامه حلا إلا أن يبيع محصوله بأى ثمن قبل أن يفسد فتكون الخسارة أفدح. ولكنه خشى أن يعود إلى قريته محبطا... وبينما هو على هذه الحال إذ جذب انتباهه منظر شده إليه شدا... لقد رأى شيخا كبيرا ذا لحية بيضاء، بيده كتاب، وبيده الأخرى سبحة يرسل حباتها الواحدة بعد الأخرى، وعن يمين الشيخ وعن شماله ومن ورائه عدد كبير من الفتية المعممين، والشيخ يسير فى تؤدة ووقار.. والفتيان يتبعونه فى أدب جم واحترام بالغ، وتتبع ابراهيم هذا المنظر واستعاد فى الحال صورة شيخ القرية وكتابها ولداته من الصبية الصغار.

وانتهى المسير بالشيخ وتلاميذه إلى باب المسجد فدخلوه ومال إبراهيم على جار، له وسأله عمن يكون الشيخ وعما يكون المسجد وعلم أن هذا المسجد هو الأزهر، وأن هذا أحد شيوخه... فبهرته الصورة واستهواه وقار الشيخ الأستاذ وسمت الفتية التلاميذ.. ولمعت فى خياله فكرة لمعان البرق وانتفض واقفا واتخذ طريقه إلى المسجد، ودخل مع الداخلين،

وراعه كثرة حلقات الدرس فانضم إلى إحداها واستمع صاغيا وكأنه يعب القول عبا ثم انتقل إلى حلقة وثالثة ورابعة ولم يكد ينتهى اليوم حتى كان قد قر عزمه على أن يصبح أزهريا يطلب العلم كما يطلبه غيره من المنكبين على الكتب حوله... وسيؤهله هذا إلى أن يكون شيخا للقرية يقبل الجميع يده ويسعون إلى رضائه، أو على الأقل فى هذا حل لمشكلته ومشكلة تجارته الخاسرة..

ونبغ إبراهيم ونال الكثير من تقدير شيوخه وأساتذته، فقد كان بحق موفور الذكاء... وسعد بهذه الحياة الجديدة التى حملت عنه عبء التفكير فى المأوى والغذاء. فالرواق فيه مأواه، و «الجراية فيها غذاؤه».

ومنذ بنت مصر الأزهر ظل وسيظل مرادا وموردا ومضت الأيام.. وابراهيم ينصرف انصرافا تاما الى دروسه وكتبه. فإذا بشيخه ذات يوم يستدعيه فهرول مجيبا... ولم يكد يقبل عليه حتى وجد فى حضرته جماعة من الناس لا يعرفهم، فيهم من يتزيا بزى أمراء الجيش، ومنهم من يتزيا بزى الشيوخ... وتقدم فقبل يد أستاذه، واستقبله الأستاذ مرحبا، ثم قدمه لهؤلاء الضيوف تقدمة كلها ثناء على كفايته ومواهبه... وفهم إبراهيم من الحديث أن هؤلاء السادة قدموا ليختاروا نخبة من نوابغ الطلاب ليكونوا نواة أولى لمدرسة الطب التى يزمع إنشاءها محمد على باشا.

وابتسم القدر.

وانتقل إبراهيم نقلة جديدة من طالب بالأزهر يزمع أن يكون شيخا صاحب كتاب فى القرية إلى تلميذ بمدرسة الطب الجديدة حيث يدرس علوما جديدة لم يسمع بها من قبل: كيمياء وطبيعة وتشريح ودراسة للأمراض والأدواء، ويستمع فيها إلى أساتذة ليسوا من دينه ولا من جنسه فهو لا يعرف لغتهم ولا يعرفون لغته، إنهم أساتذة من أوربا وخاصة من فرنسا.

ونبغ إبراهيم النبراوى – نسبة الى بلده «نبروه» – فى مدرسة الطب كما نبغ فى الأزهر من قبل...

ولما تخرجت الدفعة الأولى من طلاب هذه المدرسة، أراد محمد على أن يبعث بالنابغين إلى فرنسا ليتموا هناك علومهم، ووكل إلى ناظر المدرسة كلوت بك أمر اختيار المبعوثين، فكان إبراهيم واحدا منهم...

سافر ليحيا ثم عاد فكان العود، أحلى

عاد إبراهيم، طبيبا ثم ذاع صيته فاختاره محمد على طبيبا خاصا، له.

يقول على مبارك باشا فى ترجمته له:

[ولنجابته وحسن درايته فى فنه، اختاره العزيز محمد على باشا حكيمباشى لنفسه، وقربه وتخصص به، وبلغ رتبة أميرالاى وكثرت عليه إغداقات العزيز وانتشر ذكره، وطلبته (الفاميليات والأمراء)].

وأنعم عليه بالباشوية.

وظل النبراوى باشا يتمتع بمكانته الممتازة لدى الأسرة العلوية حتى بعد وفاة محمد على، فقد اختاره عباس باشا الأول طبيبا خاصا له بعد توليه العرش.. ونال لديه ولدى والدته الحظوة الكبرى.

لقد تزوج ابراهيم أثناء دراسته فى فرنسا من فرنسية ظل مخلصا لها لم يتزوج غيرها إلى أن أدركتها الوفاة فى مصر... فزوجته والدة عباس فتاة بدوية.

وقد نبغ من أولاده ولدان رزقهما من زوجته الفرنسية أحدهما يوسف باشا النبراوى...

والثانى خليل النبراوى وقد صار طبيبا كأبيه وهو والد إحدى قائدات الحركة النسائية فى مطلع القرن... لقد أنجب سيزا نبراوى سكرتيرة الاتحاد النسائى..

كم أعطت مصر من الرجال والنساء والمواهب والشوامخ الأفذاذ.